

طرفه بن العبد

للأستاذ بشير الشريقي

مسكين طرفه ! لقد ثكلته آلهة الشعر والهوى والخبور باكرًا
غضًا نضير العود ، مسكين لم يتمتع بالشباب ؛ بل كان لا يتجاوز
الخامسة والعشرين من عمره حينما طوته النون في سجل العدم
ودفنت معه عبقرية فياضة ، وذهنية جبارة ، وشاعرية قوية حارة .
خمسة وعشرون حجة ، أنها لحلم قصير ياطرفة . . ولكنه حلم
لذيذ ، وحلم جد عجيب . أيها الشاعر الاغتنامي والشاب
الفيلسوف المتهتك .

على رمال الصحراء الطليقة ولد طرفه ، ولكن متى ؟ هذا مالا
يعلمه أحد ؛ كان والده من سادة « بكر وائل » ومن ذوى
الشرف الرفيع والمقام المحمود في قومه ، وسمع طرفه يفتخر بأصله :
لقد علم الأقوام أنا بنجوة علت شرفاً من أن تضام وتشتا
لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها ويأوى إليها المستجير فيعضها
وتشاء الأقدار أن تسلب الشاعر والديه وهو لم يزل طفلاً في
المهد فينشأ المسكين كما نشأ الخطيئة والأخطل وبشار وأبو نواس
وابن الرومي ، يتما محروماً من كل عطف ورعاية ، لا يعرف سوى
أعمامه الذين أهملوا تربيته وهضموا حقه .

لقد ثار طرفه في شبابه على هؤلاء الذين نبذوه وظلموه وكانوا
علة شقائه ، ثار على أعمامه وذوى قربه ، وفي ساعة ذكرى ماض
محروق مهان ، وطفولة نكدية محرومة ، تلهم عرائس الشعر هذا
العبقري الصغير أياته الخالدة :

فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم ، وما أدري علام يلومني كما لامني في الحى قرط بن معبد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
ولا أعلم كيف عاب بعض النقاد الأدباء هجاء طرفه لقومه
في قوله :

أسلمني قومي ولم يفضبوا لسوء ، حلت بهم فادحة

وكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة
وكيف رموه من أجل ذلك بكثرة الشر ولؤم الطبع ، ما كانوا
محقين وما كانوا منصفين ، انهم لم يفطنوا الى أن الشاعر ما قال
بيتيه إلا بعد أن لاقى من قومه كل احتقار وقسوة ؛ وكل ما من
شأنه أن يجعل الشاعر يشور على البيئة التي نشأ فيها .

ثم هل تظن أن طرفه عنى قومه فقط حينما قال : « كلهم أروغ
من ثعلب » انا لا أظن ذلك بل أرجح أنه عنى الناس اجمعين ؛ وأنه
كان سيء الظن بالبشر شديد الحذر منهم ، اليس هو القائل في ذم
الأخلاء :

كل خليل كنت خالته لا ترك الله له واضحاً

ولد طرفه عبقرياً وشب عبقرياً ، فأسمعنا وهو في زهرة العمر
وجفر الشباب أناشيد الحياة والموت فأطربنا بانغامه إلى حين ، نعم
الى حين ، فقد أخرج الزمن لهاته قبل أن يكمل الخامسة العشرين
ربيعاً ؛ وكأن طرفه كان يشعر بمصيره ويعلم أن أيامه في الحياة
قصيرة ؛ فراح يسخر بمن يردعه عن اغتنام لذائذ الدنيا ويزجره
عن الخمر والنساء واقتحام الهيئات :

ألا أي هذا الزاجرى احضر الوغى وان أشهد الذات هل أنت مخلدى
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
واعتقد طرفه أن « الكل باطل » ورأى أن هنالك شيئاً
واحداً ثابتاً ، هو أن الحياة تمضى ، وما عدا ذلك أباطيل :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدمر ينغد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطوول الرخى وثنياء باليد
لعمرك ما الأيام الا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
وما دام طرفه يرى أن اسمه سيمحى من سجل الوجود وأن
قبر البخيل النحام في شرع الفناء كقبر الغوى الضال الذي قضى
عمره في الشرب واللعب :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
ما دام يرى ذلك فقد صمم على أن يفتنم أويقات الحياة ويتمتع
بكل ما تناله يده من لذائذ ومتع فعاش — وهذا طبيعي ممن مات
ولم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه — صريع الكأس والأعين
النجل ؛ واهباً روحه للجمال وحسه للذة ، أما نفسه فظلت كبيرة

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
واسمع إنه يحدثك عن الخير والشر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
وتأمل قوله وهو في السجن — يخاطب قاتله (١) عمرو بن هند

أبا منذر كانت غروراً صيفي
ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضي

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ألا تشعر معي أن في قوله « أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا »
نقاء وحرارة ، وليناً وروعة واستعطافاً ، وإن قوله « بعض الشر
أهون من بعض » آية يتمثل بها .

وذكروا أن من حكمه التي حملت خول الشعراء كلبيد
وجرير والاخلط على الاعتراف بفضله وتقدمه قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالآخبار من لم تزود
ويروى عن عائشة رضى الله عنها قولها : كان النبي صلى الله
عليه وسلم إذا استراب الخبر يتمثل بقول طرفه « ويأتيك بالآخبار
من لم تزود » وكان ابن عباس يقول عن هذا البيت « انه كلام نبي » .

النبي محمد يتمثل بقول طرفه . !
وابن عباس يقول إن كلامه كلام نبي .

وأبو العلاء المعري يقول في رسالة الغفران « .. لو لم يكن لطرفة
أثر إلا قصيدته التي على الدال لكان قد أبقى أثراً حسناً » .

أما قصيدة طرفه التي على الدال فهي معلقته ، اسمع مطلعها
الرائع :

خلوة أطلال بريقة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صبحي على مطيهم يقولون لآتهلك أسى وتجد
ونظر طرفه الى الحياة ، الى المستقبل ، بعين فيلسوف حكيم ،
بعين شيخ مجرب بصير بعواقب الأمور فقال :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب

رحم الله طرفه شاعر الشباب والجمال والحكمة

شرق الاردن بشير الشريفي

الحامى

(١) يذكر الرواة أن طرفه اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ، ثم
أرسله بكتاب الى المكعب ، عامله على البحرين وعمان — يأمره فيه بقتله
لأيات بلغ الملك أن طرفه هجاه بها فقتله المكعب حوالى سنة ٦٠ ق . هـ

لم يذلها الهوى ولم يخضعها الحسن ، أبداً محترمة مهيبة طموحة
الى المجد :

إذا القوم قالوا « من فتى » ، خلت أننى

عنيت ، فلم أكسل ولم أتبدل

فان تبغى فى حلقة القوم تلقى

وان تقتضى فى الحوانيت تصطد

متى تأتى أصبحك كأساً روية

وإن كنت عنها غانياً ؛ فاغد وازدد

وان يلتقى الحى الجميع تلاقى

الى ذروة البيت الشريف المصمد

ندامى يبيض كالنجوم وقينه تروح إلينا بين برد مجسد

وما زال تشرابى الخور ولذتى ويبى وإنفاق طريقي ومتدى

الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت افراد البعير المعبد

شعر رقيق عبر به صاحبه فأحسن التعبير ، وطريقة واقعية

مذهبها الاباحة والصراحة ، حقاً لقد خلق هذا الصغير طرفه

شاعراً فياض القريحة ، انظر ، إنه مافكر في غير نفسه ، ولا استمد

إلا من حسه .

ربما دهشت اذا قلت لك إن هذا الشاعر الشاب الذى مات

قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، والذى عاش كما

قال بشار :

عشت بين الندمان والراح والمز

هر فى ظل مجلس حسن

قد امتاز أيضاً بما نظم من الحكم البالغة والأمثلة السائرة ،

لا تعجب ، إن طرفه لم يكن مخلوقاً عادياً ، بل كان عبقرى مملهاً ، نظر

بعين بصيرته الى الحياة نظر الشيخ المجرب ، فحدثنا عن الوجود

والعدم حديث العارف الحكيم ، وعالج لنا خلال السنوات القليلة

التي عاشها كثيراً من مسائل الحياة واحوال المجتمع وخوارج النفس

قال يطلب الغيث لذيّار حبيته :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهى

شعر جزل فصيح ، طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن

الفاضل ضار ، وقد قال محمد (ص) « اللهم اسقنا سقياً نافعاً »

أنا وأنت وكل الناس تتمثل بقول هذا الشاب :